مكتبة المقتطف

النشر العلمي للتراث العربي

زبدة الحلب من تاريخ حلب

ألفه : الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن العديم
حققه ووضع فهارسه : الدكتور سامي الدهان — نشره : المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية
الجزء الأول : ٣٦٤ + ٤٠ صفحة من القطع الكبير وثلاث لوحات — المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٩٥١

عرض وتحليل : للأستاذ حسن كامل الصيرفي

لم يعد خافياً على نفر من أهل الفكر في الشرق العربي أن من أوجب الفروض عليهم القيام بنشر تراث الفكر العربي في عصوره الغابرة . إذ ليس من الخير لنا أن نقطع ماضينا قطعاً ، وفي ماضينا ما هو خير من كثير في حاضرنا . كما أنه ليس من الفخر لنا أن تكون عناية الغرب منذ قرون عاضيناء تلك العناية الواسعة التي بذلها السلف الماضي من خيرة المستشرقين بإحياء كثير من آثارنا الفكرية في شتى نواحي المعرفة .

نعم ، ليس من الخير أن نقطع صلتنا بالماضي المجيد ، وليس من الفخر أن يقوم الغريب بإحياء آثارنا وبعث تراثنا ونشرها نشراً علمياً صحيحاً ، يشترك في ذلك الأفراد والجماعات التي تؤازر هؤلاء الأفراد ، ولا نستطيع نحن ذلك بالتكاسل من ناحية وتقاعس الهيئات التي يجب عليها مؤازرة مثل هذه الجهود من ناحية أخرى ، فلا ينهض بذلك إلا الراغبون الذين يقفون أمام كل رغبة يبديها المحقق الباحث .

ونحن أزاء ذلك لا نستطيع أن ننكر جهود المستشرقين فيما نشروا وحققوا من مخطوطات نوادر ، ووضعوا الفهارس التي تقرّب للباحث بغيته ، فلا يضل في متاهات البحث .. ذلك كان جهد السلف الماضي من المستشرقين ، أما المحدثون منهم فقليل من

تتبع الكب الاول في طريقه . فاصبح لزاماً على أبناء العربية أن يبشروا بهذا النبأ ، ولهم من العصر بفهم أسرار اللغة ما كان يؤخذ من أسباب النقص على بعض المستشرقين .

وعندي أن النشر العلمي للكتب لا يقل في جهده الادبي عن التأليف إن لم يزد في بعض الأحيان ، ذلك لأن أصل شيء الى حقيقته وأظهار ما طمس الزمن عليه ليس بالجهد الذي ينكر أو يجحد أو يوضع في مرتبة أدنى من مرتبة التأليف،ذلك أن في هذا العمل إعادة تأليف الكتاب من جديد،وبعثاً للقرون العاشية بالاثر لنشره نشراً جديداً فيه معاني الخلود .

وأنه لما يبعث على السرور أن ينهض نفر — وان كان قليلاً — من الباحثين بهذا الواجب ، وفي طليعة هؤلاء صديقنا العالم المحقق الدكتور سامي الدهان . فهذا الرجل ذخيرة من شباب وثاب طموح ، وفكر متقد لماح ، وبصيرة نفاذة نقادة ، وعلم واسع الأطراف ، واطلاع بعيد المدى ، وهمة لا تعرف الكلال والملال . فلقد أخرج منذ عامين ديوان أبي فراس الحمداني ، ولم يكد الكتاب يفرغون من درسه والكلام عنه حتى نشر كتاب الوزير أبي القاسم الحسين بن علي المغربي « في السياسة » ثم أعقبه بنشر ديوان « الوأواء الدمشقي » الذي ما زالت تتحدث عنه أندية الأدب .

وما كاد العام الحالي يطل على العالم حتى كان الدكتور الدهان يطل اليه بمجموعة من تحقيقاته الجديدة ، سنعرض واحداً منها ، وهو الجزء الاول من كتاب « زبدة الحلب من تاريخ حلب » لابن العديم ، لينشر على الناس بعد حين التاريخ الكبير الذي وضعه ابن العديم لحلب والذي انتزع منه « الزبدة » مرتبة على السنين ، وهو « بغية الطلب في تاريخ حلب » مرتباً على حروف المعجم في أربعة عشر مجلداً . وهذا الى جانب النواحي الأخرى التي يرعاها ويعمل على تحقيقها ، وهي آثار شعراء العهد الحمداني وغيره من النفائس .

ومن أطلع على أول أثر نشره الدكتور سامي الدهان — وهو ديوان أبي فراس الحمداني لماله ما عني به نصه في المقدمة الفرنسية ، وهي الرسالة التي قدمها للجامعة بباريس فظفر بدكتوراه الدولة ، فانه أشار في تلك المقدمة الى عدد كلمات الشاعر الى جانب بيان عدد أبياته في كل فن من فنون القول . فهذه الاحصاءات تمثل لهذا الجهد تتبين منه بوضوح مدى الاهداف البعيدة التي يضعها نصب عينيه ، بله هذا العدد الضخم من مخطوطات الديوان وقد بلغت أربعين نسخة موزعة في مختلف بقاع الارض ، راجع عليها نصوص الديوان وأخرجه في أتم أصول التحقيق العلمي .

هـذا هو الناشر الذي وهب حياته لتراث خالد ، وهو الذي حل الآن المرتبة التي كان المستشرقون يأمروننا بحظها في نشر الثقافة العربية .

*

أما المؤلف الذي أرضى الناشرُ المحقق روحَه بعد سبعة قرون على انتقاله من الوجود فهو القاضي، العالم، السفير، الأديب، الشاعر، المؤرخ المولى الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله المولود عام ٥٨٨ هـ والمتوفى سنة ٦٦٠ هـ الذي قال فيه ياقوت «لم يعن بشيء إلا وكان فيه بارزاً ، ولا تعاطى أمراً إلا وجاء فيه مبرّزاً» . وقال فيه ابن شاكر الكتبي «كان عدلاً فاضلاً ، ومؤرخاً صادقاً ، وفقيهاً مفتياً ، ومنشئاً بليغاً ، وكاتباً مجوداً ودرّس وأفتى وصنف ، وترسّل عن الملوك ، وكان رأساً في الخط لا سيما النسخ والحواشي» .

وقد أطلعنا الدكتور الدهان في المقدمة النفيسة التي قدّم بها للكتاب على الجوانب المتعددة من حياة ابن العديم ، فها نحن معه حين ولي التدريس وعمره ثمان وعشرون سنة في مدرسة شاذبخت ، وهي من أجل مدارس حلب ، وفي تلك المدينة من فيها من شيوخ العلم الراسخين ، ولكن مكانة ابن العديم الرفيعة جعلته في مكان الصدارة ، وتولى بعد ذلك تقلد القضاء، فكانت مكانته عند الملوك والأمراء والخلفاء لا تقل عن مكانته بين رجال العلم والأدب، فقد «كانت المراسيم تقام للصاحب ، فلا يدخل عليه إلا من يؤذن له ، ويقدم إليه السلطان الهدايا فيوزعها ابن العديم فيمن حضر» .

ثم نراه في سنة ٦٥٤ هـ — على ما رواه أبو الفداء — «رسولاً من الملك الناصر يوسف صاحب الشام الى الخليفة المستعصم ، وصحبته تقدمة جليلة ، وطلب خلعة من الخليفة لمخدومه» . كما نراه مرة أخرى «رسولاً من صاحب دمشق الناصر بن العزيز يستنجد المصريين على قتال التتار بأنهم قد اقترب قدومهم الى الشام» .

ويعرض علينا الدكتور الدهان رأي الشعراء فيه ، وما مدحه به بعضهم كالجزار والبهاء زهير وغيرهما ليحدثنا بعد ذلك عن شعره الذي رواه ياقوت ، وكان ابن العديم لم يتجاوز الثلاثين من عمره ، ثم مات ياقوت قبل ابن العديم فلم يحفظ التاريخ شيئاً نزراً من شعر الرجل يمكن به أن يستدل على طريقته بعد الثلاثين .

على أن الدكتور سامي لم يفته النظر فيما نشر من شعر الرجل ، فهو إذ يعرض علينا صوراً من شعره في الغزل ، ينتهي منها الى الحكم عليه بأن أغراضه في هذا الباب

« كأغراض الشعراء الذين عاصروه سواء بسواء لا يختلف عنهم ولا يختلفون عنه ، رقة ديباجة ومتانة سبك ، وجمال استعارة وتشبيه » .

أما الفخر عنده فهو « الصادق الذي لا تلتمع فيه سيوف ولا تمطى منه دماء ولا تبدو فيه حمر النعم ، فلم يكن أجداده ممن دخلوا الحروب .. وإنما هم قضاة تولوا الحكم بين الناس فأناروا سبل الحق ... وهم خطباء فصحاء وكتاب بلغاء .. وهم يستشرفون سنة الشريعة السمحاء فهم ساخرون عاملون ... وهم الى جانب ذلك كرماء من أسرة شاعت القرى في العلم والدين والتقوى والندى من بني عقيل » .. ولا يرى « في أسلوب الفخر عند ابن العديم مغالاة في اللفظ ، فهو ينظم في الفخر كما ينظم في الغزل في عبارات سلسة هينة تجري مجرى الشعر الفصيح الرقيق ولا تختلف عن أسلوب النثر الرفيع إلا في تحليق الخيال وسحر الموسيقى وجلال القافية في ترتيب وتدرج وتماسك وارتباط مع أن عصره زخر بالشعراء المتحذلقين » .. هذا في غزله وفخره . أما في إخوانياته ورثائه الذي لم يصل منه إلا قصيدة رثى بها بلده حلب بعد أن مر التتار به « فتركوا عن كل بقعة فيه بصمات أصابعهم المجرمة » فهو ينطلق في هذين اللونين من الشعر عن شاعرية غير متكلفة ولا متصنعة .

هـذا عن شعره ، أما عن نثره فيقول الاستاذ الدهان إن « من قرأ كتب ابن العديم النثرية وجد أنه ناثر بليغ كما وجد في شعره أنه شاعر مجيد ، في لغة قوية وبيان متمكن بقع من اللغة وفصاحتها موقع المحول المبرزين » .

ولقد رأينا فيما مر صوراً لابن العديم كقاض عالم واستاذ حجة وسفير حكيم وشاعر ناثر . وبقي أن نرى الصورة التي رسمها له الدكتور الدهان كمؤرخ ، فهو في تاريخه الكبير لحلب « لم يثبت خبراً إلا ذكر المصدر الذي استقى منه ، ولم يورد شعراً إلا وصف لنا الديوان الذي وصل إليه أو الكتاب الذي قرأه فيه ، ولم يسرد حديثاً أو حكاية إلا قال : سمعت ، وقرأت ، وأخبرنا ، وحدثنا ، وحضرت وشاهدت ، وأنبأنا ، وقال لي عمي ، وقال لي الوزير ، وقال ابن العجمي ، ووقع إليّ من كتاب فلان ، وسيّر إليّ القاضي أبو محمد الحسن بن ابراهيم الخشاب أوراقاً بخطه ذكر أنه نقلها من فلان وفلان .. إلى أقصى ما يستطيع أن يصنعه رجل ثقة ومؤرخ حجة ومحدث ثبت وقاض منصف حين يصنع التاريخ » .

ولقد كان ابن العديم « منصفاً في تاريخه ، جاداً في تأليفه ، ذكر المذاهب بما فيهم

من عيوب ومالهم من فضائل ، وبسط الأمر في انكسارهم وفصله في انتصارهم ، لم تقع له في مدح متجاوز أو قدح مغرض ، ولم تر في أسلوبه أثر العاطفة الدينية والسياسية والاجتماعية » حتى أنه لم يأخذ عليه واحد من المستشرقين الذين نظروا في كتاب الرجل وتحزبه أو تعصبه أو خروجه عن حدود التأريخ العلمي ، فهو يروي حوادث الصليبيين في حياد — وهو قاضي المسلمين — كما يرويها مؤرخوهم حين ينشدون وجه الله والحقيقة »

وإلى جانب هذه الفضائل في ابن العديم المؤرخ كان له فضيلة أخرى « ذلك أنه مؤرخ حقاً ينقل لنا العبارات المتداولة واللهجات السائرة ، والأقوال والحوار كما جاءت في القديم ، فهو بذلك مرجع لمن يريد أن يدرس اللغات واللهجات على مر القرون واختلاف البقاع والمناطق والأديان والمذاهب »

ذلك هو المؤلف الذي شهد أرض دمشق عاليد مواطنه « سامي الدهان » بعد سبعة قرون بعثاً فيه كل معاني القوة والحياة والخلود .

وقد ذكر الناشر في مقدمته القيمة مؤلفات ابن العديم خلال ما حفظه الزمن سليماً — ومنه ما هو نادر الوجود حصل الناشر نفسه أو اطلع على مخطوطه النادر — تحليلاً دقيقاً وأشار الى المفقود منها إشارة تكاد تقربه الى أعيننا .

•

أما الكتاب الذي نشر على الناس كاملاً فهو فن من فنون التأليف الذي برع فيه العرب وسبقوا به كثيراً من الأمم ، وانقطعنا نحن عن متابعة أسلافنا في هذا الفن ، وهو التأريخ لبلد ما والترجمة له ، فالخطيب البغدادي يؤرخ لبغداد ، وابن عساكر لدمشق ، وابن العديم لحلب وابن اياس الأزدي للموصل ، وابن تغري بردي للقاهرة ، وغير ذلك . وألف ياقوت معجم البلدان ولم يكتف بتحديد موقع البلد والتعريف به بل أنه ليذكر من نشأ في كل بلد من مشاهير الأعلام وما قيل من الشعر في ذكر البلد . ونحن في أشد الحاجة الى البحث عن آثار السابقين من أعلامنا في هذا الباب ونشرها على الناس اذا لم تكن لدينا الرغبة في الانقطاع الى التأليف فيه .

« وزبدة الحلب » هي ثاني كتابين ألفهما ابن العديم عن موطنه أراد بها الرجل «أن يصف موقف حلب السياسي بين المنازع السياسية المختلفة في ذلك العهد والتيارات المتباينة طوراً تدفع المصريين عن حلب ، وطوراً تدفع الروم ، وحيناً تخرج على الخلافة ببغداد وحيناً تخضع لها . ويصف الهدايا والرسائل التي كانت تقرب بين الممالك ، ويذكر أسباب

النزاع والتخاصم ، وشروط الهدنة وأخبارها » .

فأما الجزء الأول الذي نشر من أجزاء الزبدة الثلاثة فيبدأ بالكلام عن المدينة في قديم الزمان ، وذكر نسبتها واشتقاقها . وذلك من لدن كان ابراهيم الخليل يرعى أثقاله على تل قلعتها ، ثم ذكر من بناها ، ويظل المؤلف يساير موكب التاريخ في خطراته الى الفتح الاسلامي ، فنرى البطل الاسلامي خالد بن الوليد يشق للمسلمين الطريق الى حلب بعد حرب شديدة مع الروم ، ثم يمر بها ما يقرب من قرن من الزمان وهي تشهد عصر الأمويين حتى يسير مروان بن محمد — بعد مبايعة أبي العباس السفاح — منهزماً حتى عبر الفرات من جسر منبج ، ويبدأ عصر بني العباس وتظل المدينة الخالدة تشهد بعد قرن آخر معارك دامية بين جيوش أحمد بن طولون وولده من ناحية ، وبين العباسيين من ناحية أخرى الى أن تنتهي الدولة الطولونية وتبدأ الدولة الاخشيدية ثم يشرق على المدينة عهد زاهر حين يقوم الأمر لبني حمدان ، ونرى هذه المدينة وقد تملكها سيف الدولة الحمداني في سنة ٣٣٣ هـ ، فتعود حروب الإسلام مع الروم متجددة ، ويظل لحلب مجد خالد يرفع شأنه الصارمان : السيف والقلم ، حتى ينطوي عهد الحمدانيين وتقع في قبضة المغاربة المصريين ، والمؤلف ينتقل بنا من عصر الى آخر حتى ينتهي الجزء الأول من كتابه بعد الكلام على المرداسيين حتى استيلاء محمود بن نصر بن صالح بن مرداس على المدينة في سنة ٤٥٧ هـ .

ومن يقرأ أسلوب الرجل التاريخي في هذا الكتاب يعجب للروح القريبة كل القرب من الروح العلمي الحديث في تناول التاريخ ، ولذلك لم يكن عجباً أن يهتم المستشرقون بالرجوع الى ابن العديم حين رجعوا من « البغية » و « الزبدة » ونقلوا عنها ، وحين نشروا سنة ١٨٨٤ قسماً غير قليل من « البغية » في مجموعة الحروب الصليبية .

ولقد أتيح « الزبدة » من عنايتهم حظ أوفر مما لقيته البغية ليسر الحصول على نسختها الموجودة في باريس وتفرق أجزاء « البغية » في مكتبات العالم . وقد أوضح الدكتور الدهان مختلف أطوار العناية التي لقيتها الزبدة ، ولكن ما نشره المستشرقون من فصول التقطوها منها ، وما ترجموه الى اللاتينية أو الفرنسية أو الألمانية أصبح نادراً يعسر الحصول عليه علاوة على أن المنشور مبتور ، فدفع الحافز الوطني من ناحية والرغبة العلمية من ناحية أخرى ابن حلب البار ناشر الكتاب وعمدته الى العناية بهذا الأثر ، فبحث عن أصوله فكانتا مخطوطتين إحداهما في استنبول تاريخها سنة ٨٦٣ هـ ، والأخرى في باريس تاريخها سنة ٦٦٦ هـ وهي أقرب الى زمن المؤلف إذ كتبت بعد وفاته بست سنوات ومنقولة من نسخة بخطه ، غير أن احداث الزمن قد أصابت هذه النسخة

فغطت على الكثير من محاسنها ومحت قراءتها فاضطر الناشر الى الرجوع الى كتب التاريخ يستمدها لإكمال النقص وسد العيب وتصويب الأسماء الأعجمية والعربية والموازنة بين جمل المؤرخين وعباراتهم وبين عبارة ابن العديم ، وأثبت كل ذلك في ذيل الصفحات ليثق « القارىء » بما يقرأ ويؤمن بما يرد في الكتاب » .

حتى إذا بلغ الخرم الواقع بالنسخة ووقفت أمامه عبارة مكتوبة بخط متأخر « من هنا مفقود كراسة » حار ولم يستطع الحصول على نسخة ليننغراد ، فرجع إلى مقدمة المستشرق فرايتاغ لما نشره من الزبدة فوجد أنه قد وقع في مثل هذه الحيرة وانه أراد أن يتحرى إكمال هذا النقص في نسخة ليننغراد أيضاً فلم يوفق لأن النقص واقع فيها كذلك مما يثبت أنها منقولة عن نسخة باريس . ومع كل هذه الصعوبات فان الدكتور الدهان لم ييأس وعاد الى الكتب المتأخرة التي نقلت عن ابن العديم فصوب عنها وأكمل منها ما نقص بما لا يختلف عن لغة الرجل وأسلوبه وسياق تاريخه .

ومن هذا يتجلى مدى العناية التي بذلها ومدى المشاق التي اعترضته فذللها حتى رد الى الكتاب روحه وبعثه الى الوجود قوياً سليم الروح مستوي الملامح .

ولم يقف الأمر عند نشر نص الكتاب فحسب ولكن الناشر المحقق أضاف اليه هوامش متعددة لما يقابل الأخبار الواردة في الكتاب حتى يكون أمام القارىء عرض شامل لما كتبه المؤرخون ، إلى جانب الفهارس العديدة التي ذيل بها الكتاب .

وتحقيقات الأستاذ الدهان لما نشر من الكتب وما ينشر دروس جديرة بالالتفات اليها ، ولعل الجامعات المصرية تنتهز فرصة وجود هذا الرجل في مصر فتنتدبه لالقاء عدة محاضرات في أصول النشر الحديث ، ينتفع بها الطلبة فيقبلون على نشر المطوي من آثارنا والمدفون المجهول من روائعنا .

حسن كامل الصيرفي

التربية في الشرق الأوسط العربي

للدكتور أمير بقطر — صفحاته ٤٤٦ صفحة من قطع المقتطف وطبع بالمطبعة العصرية بمصر

الدكتور « أمير بقطر » قطب من أقطاب التربية الحديثة ، ونجم من نجومها المتألقة في الشرق العربي .

ومركزه كمدير لكلية التربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، يجعله ضابط الاتصال بين الشرق الناهض المتوثب ، وبين مهد التربية الحديثة في أمريكا زعيمة الثورة التربوية في العالم وإخلاصه لفنه ، وتوفره على عمله يجعله يترصد كل شاردة من النظريات الحديثة ، يتتبعها ليقدمها إلى قراء العربية ورواد التربية في هذه البقعة من الشرق .

وكتاب اليوم ليس كتاباً بالمعنى المعروف ، ولكنه سجل دقيق حافل للحركة التربوية الناشئة في هذا الشرق العربي ، وبقدر ما فيه من الدقة والضبط والاحكام ، فقد استوعب كل ما يمكن أن يعرف عن الجهاز التعليمي ، والأداة الثقافية في هذه البلاد في شتى نواحيها وتباين مصادر التوجيهات التي تحدد أهداف الثقافة فيها .

ولهذا الكتاب قصة تبدأ فكرتها الاولى في أمريكا وتكتب فصولها ستة بلاد عربية ثم يرفع الستار عنها هنا .. في القاهرة .. فما قصة هذا الكتاب ؟ وكيف ظهر في الوجود؟ لقد طلبت الحكومة الامريكية أن يكون لديها سجل وافٍ عن الطلاب العرب الذين يفدون اليها من مختلف بلاد الشرق العربي ، ليكون أساساً يهتدى به في وضعهم مواضعهم من جامعاتها ومعاهدها ونبراساً ترسم في ضوئه سياستها في تبادل الطلاب بينها وبين تلك البلاد

فكلفت مجلس التعليم الامريكي بواشنطن القيام بهذا العمل فعهد الى الدكتور « رودريك ماثيوز » أستاذ التربية بجامعة « بنسلفانيا » ، والدكتور « متى عقراوي » مدير التعليم العالي بالعراق والمنتدب للعمل بقسم التربية « باليونسكو » ، يؤازرهما الأستاذ امام عبد الحميد من موظفي الجامعة العربية — فقاموا بدراسة مستوعبة لهذا الموضوع.

وفي سبيل ذلك « قطعوا ألوف الاميال ، وزاروا مئات المدارس واتصلوا بعدد كبير من موظفي الحكومات ، وحصلوا منهم على معلومات إحصائية ، وصور من اللوائح والقوانين ، والمناهج الدراسية ، وتحدثوا إلى المعلمين ، ووقفوا على أحوال الطلبة ومدى استعدادهم للتعليم ، وطرق التدريس ، والمعاهد ومقدار كفايتها من الأساتذة والأدوات والمعامل .. »

واستمروا قرابة سنوات ثلاث يدرسون ، ويتناقشون ، ويقارنون حتى تمخضت هذه الدراسة ، وخرجوا بهذا التقرير الضافي الذي أصبح أساساً ثابت الدعائم لتعاون الثقافي الدولي ، ومرجعاً حافلاً ممتعاً لدراسة التربية المقارنة في البلاد العربية دراسة خصبة منتجة تتيح الفرصة لتقريب وجهات النظر ، وتوحيد الأهداف الثقافية في هذه البلاد المتقاربة النزعات والعواطف ، المتحدة الأهداف والآمال.

وتستطيع أن تتبين ما يعنيه هذا الكتاب حين تقرأ سطوره الاولى : — « لما كان الفرد بالتربية ، والامة بأفرادها ، فان نوع التربية التي يتلقاها النشء في العالم العربي اليوم ، ينبيء بنوع العالم الذي سيعيش فيه غداً . وما يفكر فيه زعماء الأقطار العربية ، وما

يستحقون إليها — خصوصاً فيما يتعلق بنوع التعليم وطرائقه — يلقي ضوءاً ساطعاً على المستقبل الذي تتوقعه، وتدل هذه النواحي والقرائن على شدة العناية بالتربية، سواء بالكم أو بالكيف. على أنه لابد من التسليم بأن تحويل المناهج إلى ضروب تحويل التعليم عملية بطيئة في البلاد التي تعيش على الزراعة؟ وما تكاد تنتهي من تتبع هذه الكلمات تلك الرغبة التي تنبعث لها أعرف الشرقيين — رغبة التمحيص في شؤونهم التي يتشوقون ويأنفون منها.. حتى يكون البحث صريحاً واضحاً، ينفي عن نفسه التهمة، ويرد اعتبار الشعور العربي بهذه الكلمات الصريحة الواضحة: —

«ولما كانت هذه البلدان (العربية) ليست صاحبة الفكرة في هذه الدراسة، فقد رأى القائمون بها أن يكون الكلام عن التعليم فيها وصفياً عارياً عن التقدير، مجرداً من النقد، حريصاً على تجنب كل ما يشتم منه وزن النظم المختلفة في الموازين، أو قياس المدارس بالمقاييس أو التعرض لتقديم مقترحات بشأن هذه أو تلك..».

ثم يمضي الكتاب نحو الهدف المرسوم، فيدرس في هذه البلاد: نظم التربية وإداراتها، والتعليم العام، والتعليم الثانوي والفني، والتعليم العالي والبعثات التعليمية، ومعاهد اعداد المعلمين، والمدارس الحرة والمؤسسات الأجنبية وأثرها في الثقافة الوطنية.. كل ذلك في تدرج منطقي سليم تدعمه الأرقام المستقاة من أصدق مصادرها، مع أحدث الاحصائيات منسقة في جداول دقيقة تؤيدها الصور والرسوم التوضيحية والبيانية. حتى إذا انتهى من كل ذلك الى الغاية المرسومة، واستوعب هذه النظم في مصر وسوريا ولبنان والعراق وشرق الأردن وفلسطين كتب فصله الأخير عن «التعليم والتطور الثقافي في العالم العربي» وهو فصل أقل ما يقال فيه إنه جدير أن يكتب بماء الذهب».

هذا البحث الدقيق المستفيض لم يقدر لكاتب أو عربي أو هيئة علمية في البلاد العربية أن تقوم به، أو تفكر فيه، لقلة الرغبة وانعدام الوسائل، ولأن الحقيقة المرة المؤسفة: إن أي مفكر عربي لو فكر في مثل هذا المجهود، فلن يلقى الوسائل التي تشد أزره، وأخصها المادة، وإن وجد فلن يقوى على احتمال المصاعب، وإذا احتمل فلن يظفر بمعونة المسئولين في البلاد العربية، وإذا ظفر فلن ينجو من الاتهام المغرض!

ولكن مجلس التعليم الأمريكي قد استطاع أن يصنع المعجزة، فخرجت على الناس في هذا السفر القيم، وكان من حق القراء في الديار العربية ان يتأملوا صورهم في هذه المرآة، ومن حق المكتبة العربية ألا تحرم هذه الدرة الغالية — على ندرة ما فيها من مراجع في

هذا الموضوع — فما زال مكان هذا السفر خالياً في مكتبة التربية العربية حتى يجيء دور المترجم الفاضل ، فيتولى نقل هذا العمل الجليل الى اللغة العربية بأسلوبه السلس الرصين ، فيحدثنا — في تواضع — أنه « قد تمشى مع الأصل جملة جملة ، وسطراً سطراً ، ... وكلمة كلمة كي يستقيم له المعنى » على الرغم مما صادفه في عمله من صعوبات أقلها اختلاف المصطلحات العلمية ، والتسميات المتباينة للمدارس ومراحل التعليم وأسماء الامتحانات والشهادات باختلاف مصادر الثقافة العربية الحديثة — فقد جاء الأصل والترجمة « كالحسناء وخيالها في المرآة » . فما أجمل الحسناء ، وما أبدع خيالها .

وقد علق عليه المترجم تعليقات قيمة ، تشير إلى بعض المراجع ، أو توضح ما غمض أو تتابع التطورات السريعة التي تمت بعد كتابة هذا البحث ، غير أن بعضها لم يكن دقيقاً بالقدر الذي عرف عن الدكتور « بقطر » ، بل على العكس كان الأصل في بعض الأحيان أدق من التعليق وأخص بالذكر مركز كلية « دار العلوم » ، فالأصل يشير الى أنها « قد ضمت إلى جامعة فؤاد كإحدى كلياتها » ص ١٤٩ ، ولكن الدكتور يصر على أنها قد ضمت إلى كلية الآداب ، وهو خطأ مع سبق الاصرار ، إذ يذكره في صفحة ٢٨ ، كما يكرره في صفحة ١٢٣ ، وبالرغم مما فيه من خطأ فإنه يغضب أبناء دار العلوم الذين جاهدوا جهاد الأبطال حتى اعترفت الجامعة بها كلية مستقلة لدراسة اللغة العربية والشريعة الاسلامية » وهي لا تمنح خريجيها « بكالوريوس » كما يدعي الدكتور ص ٨٧ ولكنها تمنحهم « ليسانس في اللغة العربية والدراسات الاسلامية » . وأنا أخشى أن يعتبر « الدرعميون » هذه الأخطاء مقصودة من الدكتور فيطالبونه بالتعويض !

وكنا نود أن يتابع تعليقاته على الأصل في بعض المواضع ولكنه تركها عند الحاجة إليها ، ففي صفحة ٨٠ يزعم الأصل أن ليس هناك أي نوع من التعليم التجاري على حين أن التعليم التجاري (التكميلي والمتوسط للبنات) سابق لتاريخ هذا البحث .

كما ترك الأصل على تخليطه واضطرابه فيما يختص بالجامعة الأزهرية ، وشؤون الأزهر وهيئة كبار العلماء . وكما أن بعض الجداول والاحصاءات والرسوم التوضيحية قد بعدت في بعض الأحيان عن مواضعها الطبيعية التي جاءت لتوضيحها .

وبالترجمة بعض الأخطاء المطبعية التي كان لا بد أن يند عنها النظر في كتاب ضخم كهذا وهي لا تبلغ أن تسمى أغلاطاً ، لأنها تظهر للنظرة العابرة ولا تخفى على القارىء العادي . ويكفي أن يعرف القارىء أن هذا السفر يضم بين دفتيه ٧٤٦ صفحة من القطع الكبير

وبه ٤٧ صورة و ١٤ رسماً مصوراً و ٩٢ جدولاً وأنه مطبوع طبعاً أنيقاً . وأنه . وأنه حتى ينسج مفرده لم قد يفلت من أخطاء صغيرة . وهو لكل هذا مرجع لا بد منه لطلاب التربية ومساعدها في العالم العربي وضرورة لا غنى عنها للمكتبات المدرسية والعامة ، ومتعة المثقفين عامة والمشتغلين بالشؤون الثقافية والعربية بنوع خاص .

ولا أستطيع في هذه العجالة أن أجول بالقارىء في ثنايا هذا السفر الممتع فأتركه ، وأترك مصنفات المقتطف لرجال التربية في البلاد العربية ، يتناولون منه ما تضطرب به ديارهم في مراكب الثقافة ، وقوافل الفكر .

رضوان ابراهيم

درجات الناس عند الملوك

تأليف فضيلة الشيخ طه الساكت — صفحاته ١٩٠ — طبع بمطبعة أمين عبد الرحمن بمصر

هذا كتاب لا أكون مغالياً إذا قلت إنه فريد في اتجاهه وتأليفه وتنسيقه وجمعه فمؤلفه الفاضل ، أستاذ عالم فاضل يجد له مواقف مشهودة في الدفاع الخالص عن هذا الصرح المشيد الذي عد بحق من جنده المخلصين الذين يجدون لذة في هذا الجهاد الخصيب المرح الذي يفيد الاسلام ويعتز به يوم الدين سيذكرون ما للمؤلف من أثر بارز في هذا اللون من ألوان البحث الشائكة التي تحتاج الى مال ووقت وكد وتعب في سبيل ابراز ما يعتمل في فكر الباحث المدقق الى الوجود الذي سيجد له ما لاقاه في بحثه من أهوال ومصاب ... فالشيخ الساكت قد عرض في هذا المؤلف النفيس جانباً من آثام الامم وما حل بها من النكبات والنقم ، وضرب أمثلة شتى من مختلف الصحف وأقوال الباحثين والذين تضنيهم هذه الناحية ووصف أدواء مختلفة لهذه العلل وتلك الكوارث التي كثيراً ما تعصف بالامم وتحاول أن تفل من بنيان الاسلام الأشم .

وإني لمعجب تاعجب لصنيع المؤلف الفاضل فقد أبت نفسه الكريمة إلا أن يهدي كتابه هذا الى الملوك والعلماء والقادة متحملاً فوق طاقته المادية ما أنفقه في سبيله من مال وجهد ، وحق له أن يفعل هذا « لانه أنفق فيه زهرة عمره ومهجة فؤاده مما كان له بعد ذلك أن يبيعه بعرض من الدنيا — كما قال — والا كان أخسر التجار صفقة ، ولا أن يهديه لغير أهله والا كان أسفه الناس رأياً » .

وفق الله مؤلفه الفاضل إلى ما فيه الخير وأرشده الى الصواب وجعله نبراساً يضيء أمام الذين يريدون الخير لهذه الأمة التي يجب أن يكون لها من بنيها مرشد مخلص ، وهاد أمين ، يبعث ذلك التراث السامق ، ويمسح غبار الزمن عن هذا المجد الذي نعيش له ونجاهد من أجله ، ونموت دونه .

أبو طالب زيان